مجلة إشكالات في اللغة والأدب | مجلد: 10 عدد: 4 السنة: 2021
ص: 520 - 541 | E ISSN: 2600-6634 / ISSN:2335-1586

فن التراجم بين الكتابة التاريخية والصناعة المعجمي: دراسة معجمية في كتب تراجم النحويين واللغويين

The art of biography between historical writing and lexicography: A lexicographical study on the works of ancient grammarians and linguists

مقران شطة*

Mokrane chetta

المدرسة العليا للأساتذة مسعود زغار – سطيف

مخبر البحث في تعليمية اللغات

Teacher eduction college of setif - Algeria

mokrane.taha@gmail.com

تاريخ الإرسال: 07/ 11/ 2020	تاريخ القبول:2021/06/10	تاريخ النشر: 2021/11/04

ملخص البحث

يسعى هذا المقال إلى دراسة كتب تراجِم النحويين واللغويين من منظور مختلفٍ عن الدراسة النحوية التاريخية المرتبطة بموضوع وغاية هذه الكتب، فهو يتخذ من منهجية التأليف فيها مدخلا لولوج الدراسة وينطلق من فرضية تأثُّر هذه الكتب بالصناعة المعجمية العربية. إن هذا النمط من التأليف – وكتب التراجم عامة – يتخذ من أسماء الأعلام مادة أساسية يُرتِّبُها وفق ترتيبٍ زمني أو ألفبائي أو في طبقات ومراتب، وتُشكِّل الترجمةُ لأولئك الأعلام الغاية من التأليف. فهل يمكن وسمُ هذه الكتب بالمعاجم؟

الكلمات المفتاحية: كتب التراجم، نحوي، معجم، صناعة معجمية.

Abstract:

This paper examines the writings dealing with biographies of grammarians and language scholars. Unlike traditional studies of historical grammar that investigate their themes and aims, this study rather takes a different perspective to deal with the methodology of authoring those compositions as a starting point. It stems from the premise that these books are influenced by the Arabic lexicology traditions. The latter, along with books of biographies, uses the name of the scholar as theirsubject matter and organize them chronologically, alphabetically, or according to certain classifications and categories. Setting the biography of those grammarians and language scholars is the ultimate goal of writing such books. Hence, are these books also considered as lexicons?

* مقران شطة: mokrane.taha@gmail.com

Keywords: Biography, Grammarian, Dictionary, Lexicography.

تمهيد:

إن الإحاطة والمتابعة الجيدة للعلوم غاية يتطلّع إليها كل باحث ـ كل في مجال تخصصه ـ ولتحقيق هذه الغاية ينتهج الباحثون طرائق مختلفة، ربما كان تاريخ العلوم أقربها وأيسرها؛ فهو مدخل لا يُستغنى عنه في رسم مسار العلوم ورصد محطاتها الفارقة. ولئن كان لا بد للباحث من إطلالة تاريخية أكثر شمولا، فإن النظر إلى تاريخ الأعلام سيكون نسخة أكثر تفصيلا لتاريخ علمهم. وضمن هذا الاهتمام الأخير نجد أن العرب كانوا من أكثر الأمم عناية بـ "فنّ التراجم" إذ ألّفوا فيه تآليف كثيرة متنوعة بين كتب تراجم وأخبار وطبقات، سجلوا فيها أخبار وتاريخ علمائهم في شتى المجالات، مع تباين في منهجية رصد هذه التّراجم وعرضها والغاية من وضعها.

أولا: فن التراجم في علمي النحو واللغة[1]:

أولى بعض العلماء العرب من مؤرخين ونحويين ولغويين عنايةً للتأريخ لعلمي النحو واللغة، فكان أن وُضعَت كتب لتراجم النحويين واللغويين ابتداء من القرن الثالث الهجري. والمطّلِع على هذا النمط من التأليف لن يخفى عليه طابعه التاريخي في توثيق أنساب ومواليد ووفيات وأخبار وملح ونوادر الكثير من النحويين واللغويين العرب. لهذا، فكتب هذا النمط من التأليف مصادر أساسية يعود إليها المتخصص وغيره؛ لأنها تعدُّ "مدخلا طبيعيا للتّعرف على الحياة الثقافية والعلمية للمسهمين في التراث اللغوي العربي"[2]. ولا تتوقف القيمة العلمية لهذه الكتب عند هذا الحد، فهي مصادر نحوية أيضا تعجُّ بالكثير من القضايا النحوية واللغوية والمسائل الخلافية بين النحويين واللغويين، كما حوت الكثير من الشواهد والأخبار والروايات التي تؤصل وتؤسس للعِلمين.

1 – نشأة التأليف في تراجم النحويين واللغويين:

ظهر هذا النمط من التأليف في علمي النحو واللغة بعد ترسُّخ الممارسة العلمية فيهما، فمن غير الممكن أن تظهر دراسات على علم من العلوم ما لم يظهر فيه ما يدعو إلى ذلك؛ سواء تطوره أو ظهور بعض الأخطاء والهنات فيه. ولعل ظهور كتبٍ في النحو واللغة في القرن الثاني الهجري والاهتمام الكبير الذي حظي به العلمان كان من أهم الأسباب التي دعت إلى تدوين الذاكرة التاريخية لهما. وبالإضافة إلى

ذلك كانت هناك جملة من الأسباب التي دفعت إلى تأليف هذا النوع من الكتب في علمي النحو واللغة، منها:

– الخلاف النحوي: قد يُنظَر إلى الخلاف الذي دار بين النحويين العرب من بصريين وكوفيين وغيرهم في القرون الهجرية الأولى على أنه مظهر سلبي في تاريخ الفكر النحوي العربي؛ لأنه شتّت جهود النحويين في مناقشة مسائل فرعية، لكن يمكن عدُّ الخلاف من أكثر العوامل التي أدت إلى تطور علم النحو؛ لأنه عزَّز البحث في أصوله. ويمكن أيضا عدُّه عاملا من عوامل تأليف كتب تراجم النحويين واللغويين؛ "ذلك أن هذا الخلاف استدعى الذاكرة التاريخية للنحو وعلمائه قصد إبراز مكانة العلماء المحتج بآرائهم والإفادة من تجربتهم العلمية في تقنين العربية"[3]. وفي هذا الشأن يذكر حسن خميس الملخ أن "تأليفَ المبرد كتابا مستقلا (طبقات النحويين البصريين) في تراجم النحويين كان بتأثير خلافه العلمي مع أبي العباس ثعلب الكوفي، إذ جعل كتابه خاصا بتراجم نحاة البصرة وحدهم على منهج الطبقات فردّ عليه ثعلب بكتاب على المنوال نفسه"[4].

– الانتصار لمذهب معين في النحو واللغة: أدى الخلاف بين النحويين إلى ظهور الميول والنوازع الذاتية في بعض كتب تراجم النحويين واللغويين؛ إما بشكل صريح من خلال الانتصار لمذهب نحوي معين، كما في كتاب (أخبار النحويين البصريين) للسيرافي، أو بشكل ضمني في كتب أخرى جمعت بين نحويي مذاهب نحوية مختلفة مثل كتاب (مراتب النحويين) لأبي الطيب اللغوي، حيث إن مؤلفَه كان يصف النحويين الكوفيين بعبارات تدل على التقليل من شأنهم مع الاستشهاد على ذلك بمجموعة من الأخبار والروايات[5]. ومواقف مثل هذه من شأنها أن تقلل من موضوعية ودقة هذه الكتب، حيث "تلعب الأهواء دورها في توجيه وتحريف بعض التراجم"[6]. وقد أثَّر هذا العامل في التأليف في تراجم النحويين واللغويين، إذ يذكر أبو الطيب اللغوي من أسباب تأليف كتابه (مراتب النحويين) شكوى أحدهم من "شدة تفاوت أهل العصبية في المفاضلة بين أهل العربية، وادعاء كل قومٍ تقدُّمَ من ينتمون إليه ويعتمدون في تأدبهم عليه"[7].

– الأمر بالتأليف في هذا المجال: لا تتساوى كل كتب تراجم النحويين واللغويين من ناحية المؤلف، ذلك أن منها ما كان بإيعاز وأمر من جهة أخرى، مثل كتاب (طبقات النحويين واللغويين) للزبيدي. إذ كان تأليفه بأمر وإيعاز من أمير المؤمنين الحكم المستنصر بالله[8] "بتأليف كتاب يشتمل على ذكر من سلف من النحويين واللغويين في صدر الإسلام، ثم من تلاهم من بعد إلى هلم جرا..."[9]. وهذا الأمر من أمير

المؤمنيين الحكم المستنصر بالله إلى الزبيدي مشابه لأمر الخليفة الراشد علي بن أبي طالب أبا الأسود الدؤلي بوضع النحو، فإذا كان غرض علي بن أبي طالب وأبي الأسود الدؤلي هو الحفاظ على اللغة العربية من اللحن، فإن غرض الحكم المستنصر بالله والزبيدي هو "شكر لجميل سعي أولئك النحويين واللغويين وحميد مقامهم"[10].

– الخلط بين العلماء: وذلك نتيجة ضعف معرفة بعض المترجمين أو لتشابه في الأسماء والكنى "فلا يفرقون بين أبي عبيدة وأبي عبيد، وبين الشيء المنسوب إلى أبي سعيد الأصمعي أو أبي سعيد الكردي أو أبي سعيد الضرير، ويحكون المسألة عن الأحمر؛ فلا يدرون أ هو الأحمر البصري، أو الأحمر الكوفي. ولا يصلون إلى العلم بمزية ما بين أبي عمرو بن العلاء وأبي عمرو الشيباني، ولا يفصلون بين أبي عمر عيسى بن عمر الثقفي، وبين أبي عمر صالح بن إسحاق الجرمي. ويقولون قال: الأخفش، ولا يفرقون بين أبي الخطاب الأخفش، وأبي الحسن سعيدة بن مسعدة الأخفش البصري وبين أبي الحسن علي بن المبارك الأخفش الكوفي..."[11].

– تفشي مظاهر الوضع والتلفيق: ومن ذلك ما يرويه أبو الطيب اللغوي عن أحد كتاب التراجم عندما "روى مناظرة جرت بين ابن الأعرابي والأصمعي، وهما ما اجتمعا قط"[12].

2 – كتب تراجم النحاة واللغويين:

تجسد احتفاء العرب القدامى بهذا النمط من التأليف في علمي النحو اللغة في تأليف عدد من الكتب التي حوت تراجم عددٍ كبير من النحاة واللغويين العرب ابتداء من نشأة النحو مع "أبي الأسود الدؤلي" وحتى أزمنة متقدمة تصل إلى القرن العاشر الهجري. ومما وصلنا من تلك الكتب واعتمدنا عليه في هذا المقال ما يلي:

الكتاب	مؤلفه
مراتب النحويين	أبو الطيب اللغوي (ت 351 هـ)
أخبار النحويين البصريين	أبو سعيد السيرافي (ت368 هـ)
طبقات النحويين واللغويين	أبو بكر الزبيدي (379هـ)
تاريخ العلماء النحويين من البصريين والكوفيين وغيرهم	القاضي أبو الماحسن التنوخي(ت442 هـ)
نزهة الألباء في طبقات الأدباء	أبو البركات بن الأنباري (ت 577 هـ)
إنباه الرواة على أنباه النحاة	جمال الدين القفطي (ت624هـ)
معجم الأدباء	ياقوت الحموي (ت626 هـ)
نور القبس المختصر من المقتبس في أخبار النحاة والأدباء والشعراء والعلماء	أبو المحاسن يوسف الحافظ اليغموري
إشارة التعيين في تراجم النحاة واللغويين	عبدالباقي اليماني (ت743 هـ)
البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة	محمد بن يعقوب الفيروزبادي(ت 817 هـ)
طبقاة النحاة واللغويين	القاضي شبهة (ت851 هـ)
بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة	جلال الدين السيوطي (ت911 هـ)

وهناك كتب أخرى لم تصلنا في هذا الزمن، منها كتاب (طبقات النحويين البصريين) للمبرد(285 هـ)، وكتاب (تاريخ النحويين) لأبي بكر محمد بن عبد الملك التاريخي، وكتاب (أخبار النحويين) لأبي محمد بن عبد الله بن جعفر بن درستويه(347 هـ)، وكتاب (المقتبس في أخبار النحاة والأدباء والشعراء والعلماء) لأبي عبيد الله محمد بن عمران المرزباني (ت384هـ)[13] وضياع هذه الكتب لا يعني عدم اطلاع القدامى عليها وإلا لما أثبتوها في كتبهم كما فعل ياقوت الحموي في مقدمة كتابه، كما أن الاختصار أبقى على جزء من تلك الكتب الضائعة، مثل مختصرات كتاب المقتبس.

ثانيا – كتب تراجم النحويين واللغويين والضناعة المعجمية:

إن التفاوت الحاصل في كتب تراجم وطبقات النحويين واللغويين من ناحية المادة والغاية هو تفاوتٌ شكلي قد لا يكون له تأثير في وصف هذه الكتب، فهي تبقى كلها كتبا في النحو وتاريخه، لكن نظرةً أخرى في منهجية تأليفها قد تُحدِث الفارق إذ يمكن أن تُعطى لها صفة المعجم، وينظرَ إليها على أنها

ضربٌ من الصناعة المعجمية. وإذا كان وسمُ هذه الكتب بالمعاجم يحتاج أدلة على ذلك فإننا قد وقفنا على جملة من المؤشرات التي تدعم ذلك، وهي كالآتي:

- تسمية هذه الكتب
- اختصار هذه الكتب
- منهجية التأليف في هذه الكتب

1 – تسمية كتب تراجم النحويين واللغويين:

لم يوجد في كتب تراجم وطبقات النحويين واللغويين ما يدل على تسميتها بالمعاجم، فقد حوت عناوينها ألفاظا تدل على منهج ترتيب الأعلام المترجَم لهم مثل لفظي (مراتب، طبقات) أو على طبيعة هذه الكتب الأخبارية مثل لفظ (أخبار) أو على الغاية من التأليف مثل ألفاظ (تراجم، تاريخ، معرفة). ولم يخرج عن هذا الحكم إلا كتاب (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب) لياقوت الحموي؛ إذ يُعرَف أيضا بتسمية أخرى صُدِّر بها المعجم هي (معجم الأدباء). ورغم أن هذه التسمية لم ترد عن مؤلف الكتاب، إذ صرَّح في مقدمة كتابه بالتسمية الأولى فقط في قوله: "وقد سميت هذا الكتاب إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب"[14]، إلا أن المحققين يصرون على أنها تسمية قديمة "عرفه الناس بها وميزوه"[15].

وفي الوقت الذي سكت مؤلفو هذه الكتب عن تسميتها بالمعاجم، نجد أن بعض محققي هذه الكتب قد أخرجوها من دائرة المسكوت عنه بالإشارة الصريحة إلى انتمائها إلى النشاط المعجمي إذ يصنِّف "محمد أبو الفضل إبراهيم"[16] بعض كتب هذا النمط من التأليف ضمن النشاط المعجمي، فهو يصف كتاب (إنباه الرواة على أنباء النحاة) للقفطي بأنه"معجم شامل لتراجم مشايخ علمي النحو واللغة "[17]. ويطلق مصطلح (المعاجم التاريخية) على عدد من كتب التراجم ومن ضمنها كتابا (معجم الأدباء) لياقوت الحموي و(إنباه الرواة على أنباء النحاة) للقفطي. وهي معاجم ظهرت في القرنين السادس والسابع الهجري "تتميزُ بجمع الحقائق المنثورة في تضاعيف الكتب، وتنسيق المعارف التي وردت على ألسنة الرواة، وحشد المشاهد التي وقعت للعلماء حول موضوعات خاصة مرتبة على حسب حروف المعجم، حرصا على الاستقراء والحصر، وقصدا إلى تيسير الإفادة والنفع"[18]

ولئن جاز تسمية هذه الكتب بالمعاجم، فهل يجوز مساواتها بالمعاجم اللغوية العامة كلسان العرب لابن منظور ومقاييس اللغة لابن فارس، وغيرهما، أم أن لهذه الكتب تحديدا خاصا في الصناعة المعجمية يختلف عن هذه المعاجم؟ لا يمكن الإجابة عن هذا السؤال قبل استكمال أطوار هذا المقال، غير أننا

يمكن أن نسميها معاجم مبدئيا من منطلق قيامها على مادةِ ومنهجِ ووظيفةِ المعجم؛ ذلك أن المعجم هو ذلك "الكتاب الذي يجمع كلمات لغة ما ويشرحها ويوضح معناها ويرتبها بشكل معين"[19]. وكتب التراجم كذلك كتبٌ تجمع كلمات من اللغة العربية هي عبارة عن أسماء أعلام، تقوم بتعريفها عن طريق الترجمة لهم، وكل ذلك يكون وفق ترتيب معين تقتضيه منهجية التأليف. وعلى هذا النحو يزول الاختلاف بين كتب التراجم والمعاجم باستثناء اختصاص الأولى بدراسة أسماء أعلام دون غيرها من ألفاظ اللغة العربية. وهذا لا يعني الاختلاف من ناحية المادة، فالعَلم أو اسم العلمِ كلمة تنضوي تحت قسم الاسم؛ وهو "الاسم الخاص الذي لا أخص منه. ويُرَكَّب على المسمى لتخليصه من الجنس بالاسمية، فيُفرَّق بينه وبين مسميات كثيرة بذلك الاسم"[20].

إن اعتماد كتب التراجم على أسماء الأعلام من الأشخاص فقط يجعلها تحمل بعض الخصوصية مقارنة بالمعاجم اللغوية العامة، حيث إن وضعَ هذه الكتب يشبه إلى حد بعيد ما يسمى بـ "المعاجم الخاصة Special Dictionaries" وهي معاجم تهتم بشرح معاني فئة معينة من ألفاظ اللغة على عكس المعاجم العامة التي تهتم بتغطية مفردات اللغة العامة المشتركة على مستوى الاستعمال العام[21]. وإذا أردنا الدقة أكثر في تسمية هذه الكتب فإن اسم (المعاجم الخاصة أو المختصة) سيكون أكثر دلالة على مضمونها ومادتها من تسميتها بالمعاجم وفقط.

2 – تلخيص واختصار كتب تراجم النحويين واللغويين:

يعدُّ اختصار وتلخيص الكتب مظهرا عاما ولونا من ألوان التأليف في ثقافتنا العربية القديمة يُستخدَم لغايات علمية تعليمية. وفي مجال الصناعة المعجمية قديما – وحديثا أيضا – تمّ اختصار وتلخيص عدد من المعاجم اللغوية العامة. بل إن هناك من يرى أن "اختصار المعاجم ضرورة حتمية"[22]. ولئن كانت المعاجم أنواعا متباينة باختلاف المادة ومنهج التأليف والفئات الموجَّهة إليها...إلخ، فإن دوافع تلخيص واختصار هذه المعاجم تختلف من نوعٍ إلى آخر؛ حيث يكون الاختصار في المعجم اللغوي محكوما بالاستعمال، وفي المعجم المدرسي بحاجة المتعلمين، أما في كتب التراجم فإن العملية تتعلق بمدى أهمية الأعلام المترجَم لهم في تخصص معين. ففي مختصرات كتب تراجم النحويين واللغويين مثلا يتناقص حجمُ ومادة الكتب الأصلية بالاستغناء عن بعض النحويين واللغويين، أو بذكرهم بشكل موجز جدا.

لم تحظ كل كتب تراجم النحويين واللغويين بالاختصار والتلخيص، بل إن ما حظي منها بذلك تجده متفاوتا من حيث فعل الاختصار في حد ذاته؛ حيث يمكن التمييز بين نوعين من الاختصار في هذه الكتب:

أ– اختصار في الترجمة: ويتعلق بحجم متن الترجمة أو التعريف لنحوي أو لغوي ما، طولا أو إيجازا، ويتم ذلك بالتخلي عن بعض عناصر الترجمة في حد ذاتها من مولد ونسب ووفاة...إلخ، أو "بحذف الأسانيد"[23] كما فعل ياقوت الحموي في معجمه والغاية من هذا النوع من الاختصار هي طلبُ الإيجاز وتجنب الإطالة والإكثار، وكل ذلك له علاقة بقارئ الكتاب، إذ إن "الإنسان سئوم ملول"[24] ينفر مما يطول شرحه ويميل إلى ما فيه إيجاز واختصار.

ب– اختصار في المادة: ويتعلق بعدد الأعلام المترجَم لهم ، إذ يُقتصَرُ في بعض الكتب على عدد معين من النحويين واللغويين لاعتبارات ذاتية كانتصار المؤلِّف لمذهب نحوي معين؛ ومن ثمة اقتصاره على نحويي ولغويي ذلك المذهب، أو لاعتبارات موضوعية كعدم إسهام النحويين واللغويين أو عدم توفر مأثورات كثيرة تعزِّز ترتيبهم مع أقرانهم. وفي كلا الاعتبارين تكون الانتقائية وقلة المادة هي السمة البارزة في هذه الكتب، وقد يكون كتاب (أخبار النحويين البصريين) للسيرافي أبرز مثال على ما ذكرنا؛ فانتصاره للمذهب البصري صريح في عنوان كتابه، واعتماده على الأشهر من نحويي هذا المذهب جاء في مقدمة الكتاب: "هذا كتاب فيه ذكر مشاهير النحويين..."[25].

كما يمكن التمييز أيضا بين نوعين من مختصرات كتب تراجم النحويين واللغويين باعتبار فاعلها أي مؤلفها:

أ– مختصر وضعه المؤلف الأصلي للكتاب: ومن ذلك كتاب (بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة)؛ حيث يذكر السيوطي في مقدمة هذا الكتاب أن مسودته قد بلغت سبع مجلدات، لكنه لخص منها اللباب وأودعها هذا الكتاب، وذلك بعد أن أشار عليه أحدهم أن يلخص تلك المسودة في طبقات في مجلد يحتوي على المهم من التراجم[26].

ب– مختصرات وضعها أشخاص آخرون غير المؤلفين الأصليين: يتميز هذا النوع عن سابقه باستقلاليته عن الكتاب الأصل، حيث إن الاختصار يُوضَع عليه بعد الفراغ من تأليفه، وقد يكون ذلك بعد زمن طويل، على عكس النوع الأول الذي يكون مصاحبا لتأليف الكتاب ومرحلة من مراحله. وقد

وقف المحققون أثناء تحقيقهم لهذه الكتب على عدد من المختصرات التي وُضِعت عليها، إلا أن جُلها مخطوط ولم يحقَّق أو يُطبَع، ومن ذلك:

– مختصران لكتاب طبقات النحويين واللغويين للزبيدي، الأول من وضع محمد بن علي المحلى، والثاني طُبِع سنة 1919[27].

– مختصَر لكتاب معجم الأدباء لياقوت الحموي من وضع أحمد بن علي بن عبدالسلام التكريتي[28].

– مختصران لكتاب إنباه الرواة على أنباء النحاة للقفطي، الأول من وضع أحمد ابن عبدالقادر بن مكتوم القيسي (ت 749 هـ) والثاني من وضع شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، وكلاهما مخطوط[29].

– نور القبس المختصر المقتبس في أخبار النحاة والأدباء والشعراء والعلماء أبو المحاسن يوسف بن أحمد اليغموري، وهو المختصر الوحيد الذي تم تحقيقه وطبعه.

3 – منهجية التأليف في كتب تراجم النحويين واللغويين:

لمنهجية التأليف دور مهم في تصنيف الكتب والتقاط خصائصها ومميزاتها، ولأهميتها تلك يصرح المؤلفون بها في مقدمات كتبهم. وكتب تراجم النحويين واللغويين كغيرها من الكتب لم تخرج عن هذه القاعدة؛ حيث تقوم على مجموعة من العناصر التي تعطيها خصوصية في التأليف مقارنة مع غيرها من الكتب النحوية. بل إن لهذه العناصر (منهجية التأليف) دورٌ أساسي في وسمها بالمعاجم؛ يؤدي خلوُها منها إلى تصنيفها كتبا نحوية تاريخية أخبارية. وقد ألمح السيوطي في كتابه (بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة) إلى التشابه الحاصل بين منهجية التأليف في كتب التراجم – وتراجم النحويين واللغويين بخاصة – ومنهجية التأليف في المعاجم، حيث "أجرى كتابه مجرى ما ألَّفه الناس من المعاجم"[30]. ولئن كان السيوطي قد صرَّح باتِّباع منهج المعجميين في التأليف فإن غيره ممن ألَّف في كتب التراجم قد فعل ذلك دون تصريح باتّباعه لعناصر وأركان الصناعة المعجمية.

أ– مادة كتب تراجم النحويين واللغويين:

تُشكِّل أسماء النحويين واللغويين المادة الأساسية لكتب تراجم النحويين واللغويين، مما يخولها لأن تكون نوعا من المعاجم الخاصة. فما يشكِّل وحداتٍ لهذه الكتب (المعاجم الخاصة) ليس ألفاظا عامة من اللغة ولا مصطلحات علمية أو فنية، بل هي أسماء أعلام لعلماء في علمي النحو واللغة. عند هذه النقطة تستوقفنا نقطة جوهرية من شأنها أن تعزز فرضية هذا البحث أو تنفيها وهي: هل يمكن عدُّ أسماء الأعلام مداخل معجمية؟

إنّ الناظر إلى موقع هذه الأسماء في كتب تراجم النحويين واللغويين من الناحية الشكلية سيجد أنها لا تختلف كثيرا عن المداخل المعجمية في المعاجم اللغوية العامة أو الخاصة؛ إذ إنها ترد في شكل قوائم مرتبةً حسب منهج معين، يتصدر فيها اسم العلمِ الترجمةَ أو التعريف بصاحبه لكن هذا التشابه غير كاف ويحتاج أدلة أقوى من ذلك. لهذا سيكون البحث في ورود هذه الفئة من الألفاظ في معاجمنا اللغوية العامة – قديما أو حديثا – دليلا على مشروعية تسمية أسماء الأعلام بالمداخل المعجمية، ومن ثمّ تخصيص معاجم لها، وقبل ذلك تسمية كتب التراجم بالمعاجم.

استَخدَمت المعاجم اللغوية العربية القديمة أسماءَ الأعلام بنسب متفاوتة، لكنها لم تكن مادة أساسية فيها، ففي (لسان العرب) كان ابن منظور ينهي مادته بالأعلام سواء كانت أعلام أشخاص أم قبائل أم بلدان أم غير ذلك، كما نجد وفرةً في الأعلام في القاموس المحيط للفيروزبادي[31]. وفي العصر الحديث ازداد الاهتمام بهذه المادة في المعجم العربي، حيث صارت مادة أساسية، كما صارت مداخل مستقلة قائمة بذاتها، وخير من يمثل هذا الاهتمام (معجم المنجد في اللغة والأعلام) للويس معلوف. بل إن الاهتمام بإدراج أسماء الأعلام في المعاجم العربية الحديثة قد بلغ عند البعض مرتبة الشرط، حيث يرى أحمد مختار عمر أنه: ينبغي إدخال عينة كبيرة لا تقل عن مئة من الشعراء المعاصرين في المعجم العربي الحديث. كما ينبغي أيضا إدخال عينة كبيرة لا تقل عن مئة من كبار الأدباء وكتاب المقالة والمسرحية والقصة، وأصحاب الفكر من فلاسفة، وعلماء نفس ورجال دين ومؤرخين وعلماء متأدبين ورجال اقتصاد وغير ذلك[32].

وإذا كانت أسماء الأعلام وحدات معجمية فإن عددها – أو عدد الترجمات – يبقى أحسنَ مقياسٍ للحديث عن حجم مادة كتب التراجم وتراجم النحويين واللغويين بخاصة، وهو ما يقابله في المعاجم عددُ المداخل المعجمية. والناظر لهذه الكتب سيجدها متفاوتة المادة؛ فهناك ما لم يتجاوز المائة (100) ترجمة وهناك ما فاق ألفي (2000) ترجمة كما هو مبين في الجدول الآتي:

الكتاب	عدد الترجمات
مراتب النحويين	59
أخبار النحويين البصريين	حوالي 29 ترجمة
طبقات النحويين واللغويين	229
تاريخ العلماء النحويين من البصريين والكوفيين وغيرهم	95
نزهة الألباء في طبقات الأدباء	179
إنباه الرواة على أنباه النحاة	967
معجم الأدباء(إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب)	1264
إشارة التعيين في تراجم النحاة واللغويين	246
نور القبس المختصر من المقتبس في أخبار النحاة والأدباء والشعراء والعلماء	125
البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة	422
طبقات النحاة واللغويين	225 في باب المحمدين، وأكثر من 1000 ترجمة في الكتاب كله
بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة	2209

لقد حالت مجموعة من الأسباب دون كِبر واتساع مادة بعض كتب تراجم النحويين واللغويين وذلك من قبيل التوجهات الفكرية والخلافات النحوية، حيث أدى التركيز على نحويي البصرة مثلا إلى صغر حجم مادة كتاب السيرافي. كما أثرت مطالب الإيجاز والتركيز على أشهر النحويين إلى النتيجة نفسها. وفي المقابل تنامت واتسعت مادة كتب أخرى بشكل كبير، وذلك لعدة أسباب منها:

– تجاوز الخلافات المذهبية وعدم الانتصار والاقتصار على مذهب نحوي معين.

– عدم التخصُّص وعدم الاقتصار على النحويين واللغويين فقط: حيث تم إدراج تراجم لغير النحويين واللغويين في بعض الكتب. مثل كتاب (تاريخ العلماء النحويين من البصريين والكوفيين وغيرهم) الذي أضاف فيه مؤلفُه قسما للفقهاء وآخر للقراء بعد الإشارة إلى النحويين البصريين والكوفيين، وكتاب (معجم الأدباء) الذي جمع فيه مؤلفه "أخبار النحويين، واللغويين، والنسابين والقراء المشهورين،

والأخباريين، والمؤرخين، والوراقين المعروفين، والكتاب المشهورين، وأصحاب الرسائل المدونة، وأرباب الخطوط المنسوبة والمعينة، وكل من صنّف في الأدب تصنيفا"[33]

– عامل الزمن: فكلما تأخر المترجِم زمنيا وعاصر من لم يعاصرهم سابقوه ازدادت ترجماته.

– عدم الاكتفاء ببيئة واحدة: حيث إن بعض الكتب تجاوزت الاقتصار على نحويي البصرة والكوفة وبغداد والأندلس إلى أمصار أخرى. ومن ذلك كتاب(إنباه الرواة) للقفطي الذي ذكر فيه "مشايخ علمي النحو واللغة ممن تصدر لإفادتهما تصنيفا وتدريسا ورواية، في أرض الحجاز واليمن، والبحرين، وعمان، واليمامة والعراق، وأرض فارس، والجبال، وخراسان، وكَرمسير، وغَزْنة وما وراء النهر، وأذربيجان، والمذارَ، وإرمينية والموصل، وديار بكر، وديار مضر، والجزيرة والعواصم، والشام، والساحل، ومصر، وعملها، وإفريقية، ووسط المغرب وأقصاه، وجزيرة الأندلس، وجزيرة صقلية"[34]

– خلفية المؤلف المترجِم: حيث إنّ ممن ألّف في هذا الفن من هو جَمَّاعة، همّه الوحيد جمع أكبر عدد ممكن من الأعلام، كالسيوطي الذي يقرُّ في مقدمة كتابه (بغية الوعاة) بأنه لما وقف على بعض كتب سابقيه (أخبار النحويين البصريين لسيرافي ومراتب النحويين لأبي الطيب اللغوي وطبقات النحويين واللغويين للزبيدي والبلغة في طبقات أئمة اللغة للفيروزبادي) لم يجد فيها ما يشفي الغليل، فعمد إلى كتب التاريخ التي هي أصول وأمات، وما جُمِع عليها من فروع وتتمات فطالع ما ينيف على ثلاثمائة مجلد، وجمع كل ما تضمنته هذه الكتب من ترجمة نحوي[35].

ب– مصادر كتب تراجم النحويين واللغويين:

استقى مؤلفو كتب تراجم النحويين واللغويين مادتهم (تراجمهم) من مصادر متنوعة، لكنها لا تكاد تخرج عن هذه المصادر:

– كتب تراجم وطبقات النحويين واللغويين: استفاد مؤلفو كتب تراجم النحويين واللغويين المتأخرون من كُتب سابقيهم في هذا المجال، فقد اعترف ياقوت الحموي في مقدمة كتابه (معجم الأدباء) بنقله فوائد كتاب المقتبس للمرزباني، وأخبار النحويين البصريين للسيرافي، وطبقات النحويين واللغويين للزبيدي، و(تاريخ العلماء النحويين من البصريين والكوفيين وغيرهم) لأبي المحاسن المفضل التنوخي، و(نزهة الألباء في طبقات الأدباء) لابن الأنباري[36]. كما صرّح السيوطي في مقدمة كتابه (بغية الوعاة) بوقوفه على كتاب (أخبار النحويين البصريين) للسيرافي و(مراتب النحويين) لأبي الطيب اللغوي، و(طبقات النحويين

واللغويين) للزبيدي، و(البلغة في طبقات أئمة اللغة) للفيروزبادي[37].كما استفاد هؤلاء أيضا من كتب التراجم الأخرى كالفهرست.

– **الرواية عن الشيوخ في النحو والنقل عن كتب النحو واللغة**: قد يكون هذا المصدر أهم مصادر الترجمة للأعلام، لأنه المصدر الذي يوثق أخبارهم ورواياتهم.

– **كتب التاريخ**: تعدّ هذه الكتب مصادر لا يستغنى عنها للمترجم الذي يطلب الجمع والإحاطة من جهة، والدقة في الترجمة من جهة أخرى؛ حيث يذكر السيوطي في مقدمة كتابه أنه "جرّد الهمة سنة ثمان وستين وثمانمائة إلى جمع كتاب طبقات النحاة، جامع مستوعب للمهمات وعمد إلى التواريخ الكبار التي هي أصول وأمات، وما جمع عليها من فروع وتتمات، وطالع ما ينيف على ثلاثمائة مجلد"[38]

– **المُعاصَرة**: تعد معاصرةُ المؤلف للنحويين واللغويين مصدرا مهما يُعتمَد عليه في الترجمة لبعض النحويين واللغويين، وقد أشار ياقوت الحموي إلى دورها مفرقا بين ترجمة المعاصرِ له ومن تقدم زمانه بقوله: " فأما من لقيته أو لقيت من لقيه فأورد لك من أخباره وحقائق أموره مالا أترك لك بعده تشوفا إلى شيء من خبره، وأما من تقدم زمانه، وبعد أوانه فأورد من خبره ما أدت الاستطاعة إليه، ووقفني النقل عليه"[39]. وبلغت أهمية هذا المصدر ذروتها عند القاضي أبي المحاسن التنوخي الذي استهل كتابه بمعاصريه ثم تدرج إلى سابقيهم، حيث يقول في بداية كتابه: "دخلت سنة عشر وأربعمائة، وأنا ببغداد، وبها من النحويين الأئمة المتقدمين في علم النحو ثلاثة..."[40]

ومع هذا لم تسلم هذه الكتب من بعض المآخذ في جمع مادتها، إذ يُعاب على بعضها التهاونُ في ضبطِ مصادرِ مادتها، حيث أثَّرت مطالب الإيجاز والاختصار على دقة التوثيق. وقد وقع ذلك بعدة أمور منها:

– حذف الأسانيد: وذلك بالاكتفاء برواية آخر حلقة في سلسلة سند الرواية. وممن اعتمد هذه الطريقة ياقوت الحموي في معجمه قائلا: "حذفت الأسانيد إلا ما قل رجاله، وقرب مناله، مع الاستطاعة لإثباتها سماعا وإجازة، إلا أنني قصدت صغر الحجم وكبر النفع"[41]. كما فعل ذلك أيضا أبو المحاسن يوسف بن أحمد اليغموري في اختصاره لكتاب المقتبس بقوله: "وقد حذفت الأسانيد والطرق وما لا يتعلق به كبير غرض وفائدة"[42]

– الاكتفاء بصيغ المبني للمجهول لفعل الرواية: وهو مظهر من مظاهر حذف الأسانيد، حيث تُستبدَل سلسلة السند المحذوفة بصيغة المبني للمجهول للفعل (روى) وهي (رُوِي و يُروى)[43]

– تجاهل الإحالة على الكتب: وذلك بعدم ذكر عناوين الكتب المأخوذ منها أو أسماء مؤلفيها ومن ذلك ما جاء في إحدى ترجمات الزجاجي، حيث قال: " قرأت على ظهر دفتر بدمشق: توفي أبو القاسم عبدالرحمان بن إسحاق الزجاجي بطبرية، سنة أربعين وثلاثمائة"[44].

ج– ضبط المداخل المعجمية في كتب تراجم النحويين واللغويين:

تتفق كل كتب تراجم النحويين واللغويين في كون أسماء النحويين واللغويين بمثابة المداخل المعجمية لها، فهي تتصدر كل التراجم ويكون الترتيب منبنيا عليها. لكنها تتفاوت من جهة ضبط هذه الأسماء؛ إذ يمكن التمييز بين ثلاثة نوعين من هذه المداخل:

– **اسم كامل:** تميّزت بعض كتب تراجم النحويين واللغويين بإيرادها أسماء النحويين واللغويين كاملة مضبوطة؛ وذلك بوضع اسم النحوي أو اللغوي مع كنيته ولقبه الذي يشتهر به – إن وجد – قبل البدء في الترجمة، لتفادي الخلط الناتج عن تشابه الأسماء؛ وقد أشار إلى هذا الأمر أبو الطيب اللغوي بقوله: "إن كثيرا من أهل دهرنا لا يفرقون بين أبي عبيدة وأبي عبيد، وبين الشيء المنسوب إلى أبي سعيد الأصمعي أو أبي سعيد الكردي أو أبي سعيد الضرير، ويحكون المسألة عن الأحمر؛ فلا يدرون أ هو الأحمر البصري، أو الأحمر الكوفي. ولا يصلون إلى العلم بمزية ما بين أبي عمرو بن العلاء وأبي عمرو الشيباني، ولا يفصلون بين أبي عمر عيسى بن عمر الثقفي، وبين أبي عمر صالح بن إسحاق الجرمي. ويقولون: قال الأخفش، ولا يفرقون بين أبي الخطاب الأخفش، وأبي الحسن سعيدة بن مسعدة الأخفش البصري وبين أبي الحسن علي بن المبارك الأخفش الكوفي"[45]. ومن الكتب التي التزمت هذه الطريقة (إنباه الرواة على أنباء النحاة) و(معجم الأدباء) و(إشارة التعيين في تراجم النحاة واللغويين) و(البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة) و(بغية الوعاة).

– اسم غير كامل: لم يلتزم بعض أصحاب كتب تراجم النحويين واللغويين الأخرى طريقة معينة في ضبط المداخل أو أسماء النحويين واللغويين، فتجدهم يوردون أسماء النحويين بطرائق مختلفة:

– الاسم الكامل في بعض المواضع.

– الاسم مع اللقب: باستغنائهم عن الكنى في بعض المواضع، مثل (عمر الراوية، حمزة الزيات، عاصم القارئ، ....)[46]

– الاسم مع الكنية: باستغنائهم عن الألقاب في بعض المواضع مثل (يونس بن حبيب الخليل بن أحمد...)، لكن هذا التساهل مع أعلام آخرين مثل (عيسى بن عمرو) سيكون مأخذا، لأن "عيسى بن عمرو الثقفي من أهل البصرة، ليس عيسى بن عمرو الهمذاني من أهل الكوفة"[47].

– الكنية مع اللقب: باستغنائهم عن الأسماء مثل (أبي الأسود الدؤلي) لشهرته، لكن ذلك غير كاف مع نحويين ولغويين آخرين أقل شهرة في تاريخ النحو العربي، مثل (أبو جعفر الرؤاسي، وأبو محمد اليزيدي، وأبو عثمان المازني، وأبو حاتم السجستاني...)[48].

– اللقب أو الكنية لوحدهما: تم الاكتفاء بذكر اللقب أو الكنية فقط في بعض المواضع مثل (أبو عمرو بن العلاء، وسيبويه وقطرب)[49] لشهرتهم، لكن ذلك غير كاف مع نحويين ولغويين آخرين، مثل لقب (الأخفش) الذي يطلق على ثلاثة من النحويين هم عبد الحميد بن عبد الحميد (الأخفش الكبير)، وسعيد بن مسعدة وهو أكثر شهرة بهذا اللقب (الأخفش الصغير أو الأوسط)، وعلي بن سليمان (الأخفش الأصغر). انتبه بعض المؤلفين إلى هذا التشابه في الألقاب فجمعوه مع الاسم أو الكنية حتى يزول اللبس، وهناك من ترك الأمر على حاله فكان يورد اللقب مفردا (الأخفش) أو موصوفا (الأخفش الكبير)[50].

د– الترتيب في كتب تراجم النحويين واللغويين: المقصود بالترتيب في المعاجم:

اتبعت كتب نحويين واللغويين ثلاثة مناهج رئيسية في ترتيب مواد ومداخل هذه الكتب:

– الترتيب التاريخي: وهو ترتيب يعتمد على الأسبقية الزمنية في علمي النحو واللغة، إذ إن أغلب كتب هذا النمط تبدأ ترجماتها بأبي الأسود الدؤلي، ثم أصحابه وتلاميذه ومن جاء بعده حتى تصل إلى نحويي ولغويي زمن تأليف الكتاب. و قد طُبِّقَ هذا المنهج في مجموعة من الكتب منها كتاب (أخبار النحويين البصريين) للسيرافي، وكتاب (مراتب النحويين) لأبي الطيب اللغوي وكتاب (طبقات النحويين واللغويين) للزبيدي، وكتاب (نزهة الألباء في طبقات الأدباء) لأبي البركات بن الأنباري. و(نور القبس المختصر من المقتبس) للحافظ اليغموري

ولئن كان الترتيب الزمني في هذه الكتب تقدميا من الماضي إلى الحاضر، فإن كتاب (تاريخ العلماء النحويين من البصريين والكوفيين وغيرهم) لأبي المحاسن المفضل التنوخي كان الترتيب فيه استرجاعيا من الحاضر إلى الماضي؛ إذ بدأ بالترجمة لشيوخه ومعاصريه ببغداد في بداية القرن الخامس الهجري ثم انتقل

عائدا إلى من سبقهم وأخذوا عنهم حتى وصل إلى أبي الأسود الدؤلي وكذلك فعل مع الكوفيين واللغويين والفقهاء والقراء.

– **الترتيب الهجائي**: وهو ترتيب يعتمد على البنية اللغوية للاسم؛ حيث رُتبَت الأسماء في هذا النمط من الكتب ترتيبا ألفبائيا هجائيا بناءً على الحرف الأول من الاسم. وقد أوضح ياقوت الحموي هذا المنهج في الترتيب في مقدمة كتابه، حيث يقول: "وجعلت ترتيبه على حروف المعجم: أذكر من أولُ اسمه ألف، ثم من أول اسمه باء ثم تاء إلى آخر الحروف، وألتزم ذلك في أول حرف من الاسم وثانيه وثالثه ورابعه، فأبدأ بذكر من اسمه آدم، ألا ترى أن أول اسمه همزة ثم ألف، ثم من اسمه إبراهيم لأن أول اسمه ألف وبعده باء، ثم كذلك إلى آخر الحروف"[51]. ولم يكتف ياقوت بذلك، بل إنه أشار إلى الحالات التي تتشابه فيها الأسماء وأوجد لها معيارا للترتيب، إذ كان "يقدم من تقدمت وفاته على من تأخرت"[52]

وقد طبّق هذا المنهج في مجموعة من الكتب، هي كتاب (إنباه الرواة على أنباء النحاة) للقفطي و(معجم الأدباء) لياقوت الحموي، و(إشارة التعيين) والبلغة وطبقات النحاة واللغويين، وبغية الوعاة، وقد تميز الكتابان الأخيران بإخراجهما المحمدين (من كان اسمه محمد) من الترتيب ووضعهم إياهم في بداية الكتاب.

– **الترتيب في مراتب وطبقات**: هناك كتب اتبعت الترتيب التاريخي؛ بدأت ترجماتها بأبي الأسود الدؤلي مرورا بأصحابه وتلاميذه وحتى زمن تأليفها، غير أن هذا الترتيب لم يكن مقصودا لذاته بل كان مجرد وسيلة شكلية لعرض مداخل (أسماء النحويين واللغويين)، أما الترتيب الحقيقي الذي اتبعته هذه الكتب فمختلف عن الترتيبين السابقين (التاريخي والألفبائي) لكونه لا يرتِّب النحويين واللغويين فرديا وبشكلٍ لا تظهر فيه أيُّ علاقة بينهم. إن الترتيب في كتب المراتب والطبقات يعتمد أساسا على علاقة النحوي أو اللغوي بنحويين ولغويين آخرين سابقين أو معاصرين أو لاحقين، لهذا كان الترتيب جماعيا؛ يراعى فيه مدى تأثّر اللاحق بالسابق من جهة أو مكانة النحوي وتفوقه بين أقرانه من سابقيه ومعاصريه من جهة أخرى. ورغم أن عددا من الكتب قد حوت عناوينها مصطلح الطبقة مثل كتاب (نزهة الألباء في طبقات الأدباء) لابن الأنباري، وكتاب (طبقات النحاة واللغويين) للقاضي شبهة وكتاب (بغية الوعاة في طبقات النحاة) للسيوطي، إلا أنها لم تحمل المدلول الحقيقي لمصطلح الطبقة، ولم تتبع منهج الترتيب الطبقي بل كان الترتيب فيها هجائيا ألفبائيا. أما الكتب التي اتبعت منهج الترتيب الطبقي حقيقة فهي ثلاثة كتب فقط هي: كتاب (أخبار النحويين البصريين) للسيرافي، وكتاب (مراتب النحويين) لأبي الطيب اللغوي،

وكتاب (طبقات النحويين واللغويين) للزبيدي، حيث استخدمت ما يدل على وضع النحويين في طبقات، إما بشكل صريح كما فعل الزبيدي بوضع النحويين في طبقات. أو باستعمال عبارات تدل على انتمائه إلى طبقة معينة من قبيل (هو من طبقة فلان أو أخذ عن فلان)، أو عبارات تدل على ترؤسه لطبقته من قبيل (كان أفصحَ، كان أعلم الناس، كان مقدما...).

هـ- التعريف (الترجمة) في كتب تراجم النحويين واللغويين

تكاد تكون الترجمة هي العنصر المهم في كتب التراجم - وكتب تراجم النحويين والغويين بخاصة - بل وإحدى الغايات المتفرعة عن التأريخ للعلوم، وهي من الناحية الشكلية نص يلي اسم العلم مباشرة، أما من الناحية المعرفية الوظيفية؛ فهي نص يتفاوت طولا وقِصَرا، يحوي إحاطة وتعريفا بعلَم من الأعلام في مجال ما، ويكون ذلك بعدَّة عناصر من قبيل؛ تحديد المولد والنسب والأخبار والوفاة ...إلخ. والترجمة بهذا المدلول تتقاطع وظيفيا مع ما يسمى في الصناعة المعجمية التعريف المعجمي؛ فكلاهما يؤدي وظيفة شارحة؛ تَكفُل تحديد وشرح المعنى. ولئن كان "المعنى يقع في بؤرة اهتمام المعجمي"[53] فإنه يقع الموقع نفسه أيضا في اهتمام المترجِم، إذ لأسماء الأعلام أيضا معانٍ لكنها ليست بذلك التعدد والتشعب الذي يكون في صور أخرى لألفاظ اللغة، بل إنها دقيقة "تدل على مسمًى بعينه"[54]، وذلك لكون المعنى فيها إحاليا يعتمد على مَرجَعِه الذي هو الشخص في حد ذاته، دون الاعتماد على قرائن لفظية أو معنوية مثل الضمائر وأسماء الإشارة واسم الجنس...

وتختلف الترجمة عن التعريف المعجمي بنيويا، إذ تتألف من مجموعة من العناصر؛ منها ما يتصل بالنحوي في حد ذاته مثل مولد ونسبه ووفاته، ومنها ما يتصل بعلمه مثل شيوخه وأخباره وكتبه ومذهبه. وقد أورد بعض مؤلفي كتب تراجم النحويين واللغويين جانبا من تلك العناصر في مقدماتهم. حيث يقول الزبيدي: "...وأذكر مع ذلك موالدهم وأسنانهم ومدد أعمارهم وتاريخ وفاتهم على قدر الإمكان في ذلك، وبحسب الإدراك له، وأجلب جملة من نتف أخبارهم، وتاريخ وفاتهم، والحكايات المتضمنة لفضائلهم، المشتملة على محاسنهم"[55]. ويقول ياقوت الحموي أيضا "ولم آلُ جهدا في إثبات الوفيات، وتبين المواليد والأوقات، وذكر تصانيفهم، ومستحسن أخبارهم، والإخبار بأنسابهم وشيء من أشعارهم"[56]. وقد تستغرق الترجمة عناصر أخرى، تجعل متن الترجمة أطول مثل ذكر أشعارهم ومناظراتهم، حيث يقول السيوطي: "وأوردت من فوائدهم وأخبارهم ومناظراتهم وأشعارهم ورواياتهم ومفرداتهم"[57].

لم يلتزم مؤلفو كتب تراجم النحويين واللغويين كل هذه العناصر، حيث جاءت تراجمهم متفاوتة في توظيفها لها، مما انعكس على حجم ونوعية التراجم؛ إذ يمكن التمييز بين أنواع ثلاثة:

– **ترجمة أخبارية**: وهي ترجمة لم توظَّف فيها كل عناصر الترجمة سالفة الذكر، وتمَّ التركيز فيها على ذكر أخبار النحويين واللغويين مع الإشارة إلى مكانتهم ومراتبهم. وقد ورد هذا النوع من التراجم في كتابي (أخبار النحويين البصريين) للسيرافي، وكتاب (مراتب النحويين) لأبي الطيب اللغوي.

– **ترجمة مركَّزة**: وهي ترجمة موجزة مختصرة لم يرد فيها إلا ما يمكن أن يكون محيلا على النحوي أو اللغوي بشكل دقيق، مثل خبر مستحسن أو صفة اشتهر بها، وكانت المصنفات والكتب أكثر ما يرد في هذه الترجمات. وقد ورد هذا النوع من التراجم بشكل واسع في كتاب (تاريخ العلماء النحويين من البصريين والكوفيين وغيرهم) وكتاب (إشارة التعيين في تراجم النحاة واللغويين) وكتاب (البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة)، كما يمكن عد تراجم كتابي (إنباه الرواة) و(بغية الوعاة) من هذا النوع، وإن كانت تتميز بالطول نسبيا مع تراجم الكتب الأولى. كما جاءت بعض تراجم (معجم الأدباء) موجزة جدا[58].

– **ترجمة طويلة**: تتميز ترجمات كتب (مراتب النحويين) و(طبقات النحويين واللغويين للزبيدي) و(نزهة الألباء في طبقات الأدباء)و(معجم الأدباء) بطولها مقارنة مع النوع السابق الموجز، وذلك لتوظيفها عدة عناصر في الترجمة، من قبيل: ضبط الاسم، وذكر البلد والنسب والصفات والمحاسن ثم الولوج إلى العِلم وذكر الشيوخ والتلاميذ، ثم الأخبار والروايات النحوية أو غير النحوية، لتُختَم الترجمة بتحديد سنة الوفاة. وقد تجاوز حجم بعض تراجم النحويين واللغويين والأدباء المشهورين في (معجم الأدباء) حدود الصفحة والصفحتين ليبلغ الثلاثين صفحة وأكثر، وذلك بسبب حشو الترجمة بمناظرات ومقامات ورسائل أولئك الأعلام[59].

خاتمة

إن التشابه بين كتب تراجم النحويين واللغويين والمعاجم اللغوية العربية كبيرٌ، قد يتجاوز حدود التأثُّر إلى الانتماء؛ إذ يمكن عدُّ الأولى نمطا تأليفيا في الصناعة المعجمية العربية القديمة، وقد صرّح بهذا الانتماء أحد مؤلفي هذه الكتب عندما سمى كتابه معجما – أعني معجم الأدباء لياقوت الحموي – وتزداد قوة هذا الانتماء باتباع منهج المعجميين في التأليف من جمعٍ للمادة وانتقائها، ثم وضعها في قالب خاص بترتيبها ترتيبا معينا وحشد تراجم وتعاريف للأعلام. ولئن كانت كتب التراجم وتراجم النحويين واللغويين بخاصة مشابهةً إلى حد كبير للمعاجم في منهجية التأليف فإنها من ناحية المادة أخص من الثانية؛ لأنها لا

تهتم إلا بالأعلام من النحويين واللغويين ولما كانت أسماء الأعلام جزءا من ألفاظ اللغة وتحمل معانٍ كغيرها من الألفاظ صار من اللازم وضعها في إطارها الخاص وهو كونها معاجم خاصة أو مختصة.

إن كتب التراجم بوضعها ضمن هذا الإطار ووسمها بالمعاجم المختصة سيخولها لأن تكون مادة معجمية يمكن الاستفادة منها في توسيع النشاط المعجمي العربي دراسة وتدريسا نظريا وتطبيقيا؛ إذ ستشكِّل هذه الكتب النواة الأولى لإعداد معاجم مدرسية تُراعى فيها الفئات الموجهة لها وتخصصاتهم الدقيقة.

هوامش:

[1] – إن المقصود بعلمي النحو واللغة في هذه الكتب وفي التراث اللغوي العربي عموما مختلفٌ عما يمكن أن يشابهه من مصطلحات حديثة، إذ يدل الأول منهما على دراسة اللغة في جميع مستوياتها الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية؛ لذلك فهو شبيه بما يعرف باللسانيات حديثا. أما علم اللغة فليس ترجمة للمصطلح الأجنبي Linguistics بل هو مصطلح عربي قديم استُعمِل للدلالة على الدراسات التي تهتم بالثروة اللفظية، ويشمل المعاجم والرسائل اللغوية وكتب الغريب والمشترك اللفظي والأضداد والفروق اللغوية...وكان يطلق عليه أيضا "فقه اللغة ومتن اللغة واللغة"، وهذا العلم أقرب إلى الدراسة المعجمية الدلالية منه إلى بقية المستويات. وما قيل على علمي النحو واللغة ينسحب على النحوي واللغوي في كامل المقال.

[2] – محمود فهمي حجازي، أسس علم اللغة العربية، ص74.

[3] – حسن خميس الملخ، منهج تحقيق كتب تراجم النحاة – عرض ونقد، مجلة التراث، مخبر جمع ودراسة وتحقيق مخطوطات المنطقة وغيرها، جامعة الجلفة، العدد06، 2013، ص91

[4] . حسن خميس الملخ، مناهج تحقيق كتب تراجم النحاة، عرض ونقد، ص01.

[5] – استخدم أبو الطيب اللغوي عددا من العبارات التي تدل على انتصاره لمذهب البصريين وانتقاصه من الكوفيين، وذلك من قبيل؛ ليس بنظير لهؤلاء الذين ذكرنا ولا قريب منهم، كان يحسن شيئا يسيرا من جليل النحو، لا قدر له ي كتابه مراتب النحويين...ينظر: أبو الطيب اللغوي: مراتب النحويين، تحقيق: محمد أبو الفضل ابراهيم مطبعة نهضة مصر، القاهرة، (د، ت)، ص24، 74، 75، 86، 87، 88، 89...

[6] – أندريه موروا، فن التراجم والسير الذاتية، ترجمة:أحمد درويش، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 1999 ص06.

[7] – أبو الطيب اللغوي: مراتب النحويين، ص01.

[8] – الحكم المستنصر بالله (302 – 366هـ / 915 – 976 م) تاسع أمراء الدولة الأموية في الأندلس وثاني خلفاء الأندلس بعد أبيه عبد الرحمن الناصر لدين الله الذي أعلن الخلافة في الأندلس عام 316 هـ. اشتهر بعشقه للعلم واقتناء الكتب، حتى عجت مكتبته بنحو أربعمائة ألف مجلد، بذل جهدًا في جمعها من مختلف الأقطار.

[9] – الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين، ص17.

[10] – الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين ، ص17.

[11] – أبو الطيب اللغوي (عبدالواحد بن علي)، مراتب النحويين، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة نهضة مصر (القاهرة)، (د ت)، ص 01، 02.

[12] – المرجع نفسه، ص05.

[13] –ينظر: ياقوت الحموي، معجم الأدباء – إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، تح: إحسان عباس، دار الفكر الإسلامي (بيروت)، ط1، 1993 ج1، ص 05 – 07.

[14] – ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج1، ص15.

[15] – ينظر: ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج1، (مقدمة التحقيق)، ص (و).

[16] – محمد إبراهيم أبو الفضل (1904 – 1981): محقق مهتم بالتراث العربي، حقّق ما يربو عن 30 كتابا في الأدب واللغة والتاريخ. وهو يعدُّ من أكثر المحققين لكتب تراجم النحويين واللغويين؛ إذ حقّق منها خمسة كتب هي: كتاب مراتب النحويين لأبي الطيب اللغوي، وكتاب طبقات النحويين واللغويين للزبيدي، وكتاب نزهة الألباء في طبقات الأدباء لأبي البركات ابن الأنباري، وكتاب بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة للسيوطي، وكتاب إنباه الرواة على أنباء النحاة للقفطي.

[17] – القفطي (جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف)، إنباه الرواة على أنباء النحاة، ج1، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم دار الفكر العربي (القاهرة)، ومؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ط1، 1986، ص25.

[18] – القفطي، إنباه الرواه على أنباء النحاة، ج1، ص24.

[19] . أحمد مختار عمر،صناعة المعجم الحديث، عالم الكتب (القاهرة)، ط2، 2009، ص19.

[20] – ابن يعيش (موفق الدين أبو البقاء)، شرح المفصل للزمخشري، ج1، تح: إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية (بيروت)، ط1، 2001، ص93.

[21] – ينظر: أحمد مختار عمر، صناعة المعاجم الحديثة، ص39.

[22] – علي القاسمي، اختصار المعاجم – طرائقه وأهدافه، مجلة اللسان العربي، مكتب تنسيق التعريب،الرباط العدد50، 2000، ص29.

[23] – ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج1، ص07.

[24] – السيوطي (جلال الدين عبدالرحمان)، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، ج1، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم دار الفكر (القاهرة)، ط2، 1979، ص06.

[25] – السيرافي (أبو سعيد الحسن بن عبدالله)، أخبار النحويين البصريين، تح: طه محمد الزيني و محمد عبدالمنعم خفاجي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده (القاهرة)، ط1، 1955، ص10.

[26] – ينظر: السيوطي، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، ج1، ص05، 06.

[27] – ينظر: الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين، (مقدمة المحقق)، ص 03.

[28] – ينظر ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج1،(مقدمة التحقق)، ص ج

[29] – القفطي، إنباه الرواه على أنباء النحاة، ج1، (تصدير المحقق)، ص07.

[30] – السيوطي بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، ج1، ص06.

[31] – ينظر: محمد أبو الفرج، المعاجم اللغوية في ضوء علم اللغة الحديث، دار النهضة العربية (القاهرة)، 1966 ص48، 53.

[32] – ينظر أحمد مختار عمر، صناعة المعجم الحديث، ص 78، 79.

[33] – ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج1، ص07

[34] – القفطي، إنباه الرواة على أنباء النحاة، ج1، ص36، 37.

[35] السيوطي، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، ص 03 – 05 .

[36] – ينظر: ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج1، ص 05 – 07.

[37] – ينظر: السيوطي، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، ج1، ص03.

[38] – السيوطي، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، ج1، ص03.

[39] – ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج1، ص 07.

[40] – أبو المحاسن المفضل بن محمد التنوخي، تاريخ العلماء النحويين من البصريين والكوفيين وغيرهم، تح عبدالفتاح محمد الحلو، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية (الرياض)، 1981، ص20.

[41] – ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج1، ص07.

[42] – نقلا عن: أبو المحاسن يوسف بن أحمد اليغموري، نور القبس المختصر من المقتبس في أخبار النحاة والأدباء والشعراء والعلماء، تح: رودولف زلهايم، دار النشر فرانتس شتاينر بقيسبادن، 1964، ص02.

[43] – ينظر: ابن الأنباري (أبو البركات كمال الدين عبدالرحمان)، نزهة الألباء في طبقات الأدباء، تح: إبراهيم السامرائي، مكتبة المنار (عمان)، ط3، 1985، ص23، 25، 32...

[44] – أبو المحاسن التنوخي، تاريخ العلماء النحويين من البصريين والكوفيين، ص36.

[45] – أبو الطيب اللغوي: مراتب النحويين، ص 1،2.

[46] – ينظر: أبو الطيب اللغوي، مراتب النحويين، ص24، 26،

[47] – السيرافي، أخبار النحويين البصريين، ص25.

[48] – ينظر: أبو الطيب اللغوي، مراتب النحويين، ص24، 67، 77، 80.

[49] – ينظر: أبو الطيب اللغوي، مراتب النحويين، 13، 65، 67.
[50] – ينظر: الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين، ص40، 115.
[51] – ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج1، ص08.
[52] – المرجع نفسه، ج1، ص08.
[53] – أحمد مختار عمر، صناعة المعجم الحديث، ص117.
[54] – عباس حسن، النحو الوافي، ج1، دار المعارف (القاهرة)، (د ت) ، ص 286.
[55] – الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين، ص17.
[56] – ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج1، ص 07.
[57] – السيوطي، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، ج1، ص 05.
[58] – ينظر: ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج1، ج2، ص199، 204، 253، 262، 357، 396، 409...
[59] – ينظر: ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج1، ج2، ج4، ج5، ص 234، 295، 876، 1923